

دعوات تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث

- قراءة في الأسباب والدوافع والأهداف -

Calls to Renew the Arabic Rhetoric in the Modern Era

- A Study in the Reasons, Motives and Aims -

صالح مرحباوي*

جامعة باتنة 1 - الحاج لخضر-

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة - جامعة باتنة 1

salah.merahbaoui@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2022-04-05

تاريخ الإرسال: 2021/01/29

ملخص:

كانت البلاغة العربية وعلى مدى قرون ترمى بالجمود في قواعدها ومنهجها وعدم قدرتها على مواكبة المستجدات وبخاصة في هذا العصر الذي شهد تطورا كبيرا في العلوم والمناهج وتطورا أيضا في الآداب والفنون، لذلك كان لزاما على البلاغة أن تواكب هذا التطور وتساير هذه الأحداث؛ فتجديد البلاغة العربية كان ولا يزال من القضايا الهامة في الحياة الأدبية والثقافية العربية، ورغم ما كتب فيه، إلا أنه لا يزال جديرا بالبحث، لذلك فإن هذه الدراسة ترمي إلى الكشف عن أهم دعوات التجديد البلاغي في الساحة العربية وتقديم قراءة في أسبابها ودوافعها وأهدافها؛ بغية معرفة ما قدمته على الصعيدين: النظري والتطبيقي.

الكلمات المفتاحية: التجديد؛ البلاغة العربية؛ العصر الحديث.

Abstract :

Over centuries, Arabic rhetoric was accused of stagnation in its rules and method, as well as not being able to keep up with the updates of the current era that is witnessing a huge development in sciences, approaches, literature and arts. Therefore, it was a must for this latter to keep up with this development and get along with these events. Renewing Arabic rhetoric was, and still is, one of the important issues in Arabic life, literarily and culturally. Despite all what was written on it, it is still in

need of research that is why, this study's aim is to discover the most important calls in the rhetorical renewing in Arabian area and to present a study in its reasons, motives and goals, in order to know what it presented in the theoretical side and the applied one.

Keywords: renewing; Arabic rhetoric; modern era.

مقدمة:

يتناول هذا البحث أبرز محاولات تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث و البحث عن أهم إنجازاتها العلمية والبيداغوجية في ظل التطور الكبير في علوم اللسان ومناهج النقد، وتحديد الدراسات الأسلوبية التي يرى كثير من الدارسين أنها وليد البلاغة، بل إنها وريثها في ظل عقم البلاغة وعجز قواعدها وأسسها عن مواكبة العصر فنيا وأديبا.

وقد بدأت دعوات التجديد هذه تظهر تباعا منذ مستهل القرن العشرين، وهو الوقت الذي بدأ فيه الشعور يتنامى بعدم إيفاء البلاغة - في صورتها التي استقرت عليها- بما كان يناط بها من تقويم الأعمال الأدبية، والكشف عن جمالها، وللعلم فإن محاولات التجديد التي عرفتها الساحة الأدبية كانت كثيرة، ولكنها لم تكن كلها في مستوى عظمة البلاغة وأهمية الموضوع، بل إن بعض هذه المحاولات لم يكن الغرض منها علميا صرفا فبعضها بالغ في الانتصار للبلاغة في ثوبها القديم، فجاءت عاطفية إلى حد بعيد بما يتنافى مع العلم وموضوعيته، وبعضها بالغ في العداء للبلاغة، فكان الهدف منها الهدم وليس البناء، وبالتالي فكلما النوعين لا يمكن إدراجه ضمن محاولات التجديد الجادة.

ودعوات التجديد هذه تنوعت بين من يبتغي من التجديد إعادة صياغة البلاغة العربية وفق منظور جديد، ومن ثم القيام بتغييرات جذرية في مفاهيمها وأسسها ومصطلحاتها ومنهجها، وبين من يبتغي تهذيبها وتخليصها من الغموض وتقديمها بشكل يقبله العقل الحديث ويستسيغه الذوق المعاصر، ومن هذه الدعوات من يسعى لتيسير البلاغة بغرض تدريسها وإدراجها ضمن المنظومات التعليمية بكيفية تكون فيها محل إقبال من المتعلمين.

وهذا الموضوع يعد على قدر كبير من الأهمية؛ وذلك لأهمية البلاغة في حد ذاتها وحاجتها إلى التجديد، وأكثر من ذلك حاجة الأدب والثقافة بشكل عام إلى بلاغة متطورة جديدة تستجيب لروح العصر وتساهم في البناء الفكري والحضاري، ولا يتم ذلك إلا بإنقاذ هذا الصرح العلمي والأدبي الضخم والحيوي، ولقد أدرك جسامه هذه المهمة كثير

من الدراسين مبكرا، وموضوعنا هو استعراض هذه الجهود وقراءتها موضوعيا بما يكشف ما قدمته في هذا المجال، بما في ذلك الكشف عن المرجعيات والأهداف. وهل كانت هذه الدعوات في محلها وفي وقتها؟ وما أسبابها ودوافعها؟ وهل كانت منطلقة من دواع حقيقية؟ وهل حققت هذه الدعوات أهدافها ووصلت إلى ما تصبو إليه في سبيل تجديد البلاغة العربية؟

وكان المنهج في جانب منه تاريخيا، وفي جانب آخر وصفيا تحليليا يستهدف عرض الآراء ثم تحليلها والغوص في عمقها والخروج بنتيجة ملموسة في هذا الشأن.

1- أسباب ودواعي تجديد البلاغة:

لفهم أية ظاهرة ينبغي البحث في أسبابها ودواعيها؛ قصد الوقوف على حقيقتها والوصول إلى تفاصيلها، والدعوة إلى التجديد عموما وتجديد البلاغة العربية أمر لا يشذ عن هذه القاعدة، لذلك في البداية ينبغي تحديد هذه الأسباب والدواعي التي أدت إلى الشعور بالحاجة إلى تجديد البلاغة العربية، بل والافتناع بضرورة القيام بذلك، "وقد قامت محاولات جادة في هذا العصر لإعادة الحياة إلى البلاغة العربية وربطها بالأدب الحديث"¹. ويمكن تصنيف هذه الأسباب إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية. أما الأسباب الذاتية فتتعلق بالبلاغة في حد ذاتها وما آلت إليه وما أصابها، وأما الأسباب الموضوعية فتتعلق بالسياقات المستجدة في الساحة الأدبية والنقدية وما حصل فيها من تطور .

1.1- الأسباب الذاتية:

تتعلق هذه الأسباب بحالة الجمود التي وصلت إليها عشية العصر الحديث، والتي شكلت مأساة البلاغة العربية، إذ إنها لم تعد تواكب ما استجد من آداب وعلوم ومناهج بل وأذواق، وغدت قواعد صارمة بلا روح - إن صح التعبير - ويُرجع الباحثون ذلك إلى عدة عوامل أبرزها وقوعها في براثن الفلسفة والمنطق الجاف، وبعدها عن الحس الفني والذوق الجمالي.

¹ /مطلوب أحمد و حسن البصير، البلاغة والتطبيق (1999)، ط2، وزارة التعليم العالي والبحث

وقد كانت أو يفترض فيها أن تكون الأداة التي تمكن من الوقوف على الأسرار الفنية للأدب شعرا ونثرا؛ " فالبلاغة تغلب عليها الناحية الفنية بمعنى أنها تمد المتعلم بكل القواعد والعناصر البيانية التي تساعد على جودة التعبير على أفكاره... (وبعبارة أخرى) تعلمه كيف يصوغها ويخرجها في قوالب بليغة من الكلام"²، إلا أن هذه الوظيفة للبلاغة لم تعد قائمة، بل إن وظائف أخرى أيضا لم تعد تؤديها، وهذا مظهر بارز من مظاهرها أدت إلى الشكوى منها والدعوة إلى تجديدها. ومن العوامل الذاتية أيضا طبيعة البلاغة العربية التي انحسر بحثها في المفردة والجملة دون أن تتجاوز ذلك إلى الفقرة أو النص أو العمل الأدبي كاملا³، وإن كان في هذه الجزئية بالذات قد جانب منتقدو البلاغة الصواب إلى حد ما؛ لأن البلاغة في هذا المجال قد كفت ووفت وليس من المنطقي أن يطلب منها أكثر بسبب طبيعتها العلمية والمعيارية، يقول أحمد بدوي: " ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذا الحد (الجملة والجملتين) فذلك ميدانها، وهو ميدان شاسع الأرجاء، لأنها تقف في النص الأدبي عند كلماته تتبين سر اختيارها وعند جملة تتبين سر تركيبها، وليس ذلك بالعمل الهين"⁴.

وكذلك بقاء قواعد البلاغة في حدود الشكل فرضه التحديد المنطقي والمنهج الكلامي، مما أدى إلى عدم قدرتها على الغوص إلى جماليات الأدب والفن ... وقريب من هذه الشكلية انحسار البلاغة في الجانب اللفظي؛ فرأينا طغيان تيار الزخرف اللفظي حتى أدى ذلك إلى إهمال المعاني والمضامين واختفى الإبداع الحقيقي.

وبالمحصلة فيما يتعلق بالعوامل الذاتية التي وجدت فيها البلاغة والتي فرضت على الجميع الدعوة إلى تجديدها، فإنها كانت كافية لظهور دعوات التجديد.

2.1 - الأسباب الموضوعية:

أما فيما يتعلق بالعوامل الموضوعية التي ساهمت في هذه القضية فيمكن إجمالها فيما يلي:

² / عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (1972)، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، ص11

³ / عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، (1994)، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر،

ص 259

⁴ / ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث (د.ت.)، (رسالة دكتوراه)

جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، ص 128

- هذا العصري سعى بعصر النهضة، وقد شملت دعوات التجديد كل مناحي الحياة العربية وبخاصة الفكرية والأدبية منها، فليس غريبا أن يُدعى إلى تجديد البلاغة.

- الحياة الثقافية والفكرية والأدبية في هذه الفترة قد بدأت تظهر فيها أشكال أدبية وفنية جديدة لم يكن للأدب العربي عهد بها في سابق العصور، فكان على البلاغة العربية أن تواكب هذه الفنون، وأن تدخل دائرة بحوثها، وكان عليها أن تكشف سر الجمال وبراعة الإبداع فيها، وبالتالي فإن دعاة التجديد محقون في دعوتهم، يقول شوقي ضيف: " وهذا التطور الواسع لأدبنا في شكله ومضمونه وأساليبه وفنونه حري أن يقابله تطور في بلاغتنا بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها المتنوعة"⁵.

- أيضا وفدت على الساحة الفكرية والعلمية والأدبية علوم ومناهج تستهدف دراسة الأدب واللغة بمنطق جديد ورؤية مختلفة، وهذا يفرض إعادة النظر في البلاغة القديمة وفي قواعدها ومنهجها والنظر في مدى صلاحيتها لتقويم أو توجيه الفنون الجديدة وإرضاء الأذواق والعقول في هذا العصر.

وإذا اتضحت هذه العوامل، فإن الهدف من تجديد البلاغة سيكون واضحا أيضا ويمكن إنجازها فيما يلي:

- تخليص البلاغة من هذا العبء الذي أفسدها وأضر بوظيفتها.
 - إعادة الاعتبار للبلاغة بوصفها أرفع العلوم قدرا وأهمها شأنًا.
 - توسيع دائرة مباحثها بحيث تشمل فنونا وأشكالا أدبية جديدة.
 - تحقيق المعاصرة لمباحث البلاغة من خلال استقطاب العلوم والمناهج الحديثة.
 - تيسير البلاغة وقواعدها ومصطلحاتها وتقديمها بطرائق حديثة وأساليب علمية.
- لهذه الأسباب وغيرها مجتمعة، وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، انطلقت دعوات كثيرة لتجديد البلاغة وإخراجها من حال الجمود التي آلت إليها، والبحث - ربما- عن بديل يكون صالحا لأن يَخْلُف البلاغة القديمة خاصة إذا كانت له جذور في تراثنا، هذا البديل يمكن أن يكون علم الأسلوب " إذ إنه على أصالة جذوره في ثقافتنا وتوافر الأسباب الظاهرية لنموه، ودوره كوريث شرعي للبلاغة التي أدركها سن اليأس وحكم عليها تطور

⁵ / ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، (د. ت)، ط9، دارالمعرف، مصر، ص 378

الفنون والآداب الحديثة بالعقم..."⁶ ، وهذا الأمر يعزز المنطق وتقتضيه طبيعة الأشياء فالبلاغة القديمة لها أسسها ومنطقها وذوقها، والأمر نفسه تقتضيه البلاغة الحديثة – إن صح وجودها – " وأما البلاغة الحديثة فلا بد أن تستمد دلالتها من اختلاف مفهوم الجمال، ومن تحول الذوق الحديث عن الذوق القديم ومن اختلاف الأنواع الأدبية الجديدة عن الأنواع القديمة، وذلك وغيره كثير، صار نتيجة لاختلاف الثقافة الحديثة عن القديمة، ولا شك في أن الثقافة هي المحضن الطبيعي لكل العلوم"⁷.

2- اتجاهات التجديد:

على الرغم من كثرة دعوات التجديد التي انطلقت لتخليص البلاغة العربية من حال الجمود، وبصرف النظر عن بعض الغايات التي يصفها بعضهم بأنها هدامة، إلا أنه يمكن تصنيفها إلى عدة اتجاهات أبرزها:

- اتجاه يرى بأن التجديد يكون بالعودة إلى التراث الأصيل والاستناد عليه وإليه في بعث روح جديدة في البلاغة العربية، وإنقاذها من الهوة التي وقعت فيها، ودعاة هذا الاتجاه ذوو مرجعية تراثية تؤمن بعظمة التراث وقديسيته، ويرون أن ما وقع للبلاغة هو أمر عارض ناجم عن أمراض العصر (السرعة، والتطفل، والصحافة) كما رأى ذلك أحمد حسن الزيات⁸، وإما ناجم عن سوء تطبيق لأصول البلاغة وعدم فهم لأسرار البيان، لذلك فهم يرون بأن سبيل تجديد البلاغة ينبغي أن يستلهم من روح التراث والاكتفاء بتيسير مباحثها وتبسيط مصطلحاتها والعودة إلى المنحى الأدبي القائم على الذوق، والبعد على المنطق والفلسفة وعلم الكلام... " وليس معنى ذلك أن نهمل تراثنا البلاغي القديم، إنما نهمل منه الأعشاب الضارة التي علققت به من الفلسفة والمنطق والكلام والأصول والنحو. أمّا ما بعد ذلك، فإنه ينبغي أن نحفظ به في بلاغتنا، لسبب طبيعي هو أنه يمثل المقومات البلاغية الأصيلة للغة وشخصيتها الأدبية الخالدة"⁹.

⁶ فضل صلاح، علم الأسلوب- مبادئه وإجراءاته - (1998)، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، ص 05

⁷ الكوازي محمد كريم، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، (2006)، ط1، مؤسسة الانتشار

العربي، بيروت، لبنان، ص 276

⁸ الزيات أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، (1945)، د. ط، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، ص05

⁹ ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ص378

- اتجاه يرمي البلاغة العربية بالعقم المطلق، ويرى بأنه لا جدوى من الأخذ بها في عصرنا ومن الضروري استبدال قيمها الجمالية والفنية بأخرى مختلفة تماما مستلهمة من حاضرنا ومن بلاغة الغرب وثقافته وقيمه، وهذا الاتجاه رغم وجوده بشكل واضح ورغم تقديمه لرؤية في هذا الصدد، إلا أنه ليس له صدى حقيقي في الأوساط الأدبية والثقافية الغربية، وخير من يمثل هذا الاتجاه سلامة موسى وقد ألف كتابا سماه (البلاغة العصرية)، وزعم فيه أن فن البلاغة العربية غير صالح اليوم "كان فن البلاغة العربية ولا يزال إلى الآن - فن التعبير عن العاطفة والانفعال، ونحن لا نفكر أو نستسلم للعاطفة، ولذلك فإن هذا الفن لا يخدم التفكير العلمي والفلسفي... البلاغة الجديدة هي بلاغة المنطق الذي يرشدنا إلى توقي الخطأ، والتفكير السديد هو التفكير العلمي الموضوعي، واللغة الحسنه هي التي تؤدي المعنى في دقة هندسية ووضوح إقليدي"¹⁰، ومن حين لآخر نجد من يسير على نهج سلامة موسى ويحمل أفكارا شبيهة بأفكاره.

وقريب من هذا الاتجاه اتجاها يرى بأن كتب البلاغة التراثية أمثال: مفتاح العلوم للسكاكي، والتلخيص للقزويني، والطراز للعلوي ونظيرها من المؤلفات يجب أن تلغى وتؤلف بدلا عنها كتب أخرى وفق منهج حديث¹¹، ويبدو أن مثل هذه الدعوات غير جادة فيما تدعو إليه، والدليل على ذلك تطرفها فيما تنادي به، إذ من غير المنطقي تشييد بلاغة من فراغ، أو الانطلاق من العدم في التجديد.

- أما الاتجاه الثالث يرى أن التجديد المفيد هو ذلك الذي يستفيد من التجارب الغربية وعلومها ومناهجها ولغاتها بناء على ما حققته في من تقدم وتطور مازلنا نحن العرب بعبيدين عليه كثيرا، وهذا الاتجاه - رغم إعجابه بالغرب ولغاته وعلومه - إلا أنه لا يتنكر للتراث، ولا يرمي البلاغة العربية بالعقم المطلق، بل يرى أنه من الضروري الانطلاق من أسس البلاغة العربية القديمة وقيمها، والإبقاء على ما هو صالح، والتخلص مما هو غير صالح، أو أن الزمن تجاوزه، والاستعانة بما وصل إليه الغربيون من مناهج وطرائق،

¹⁰/ موسى سلامة، البلاغة العصرية، واللغة العربية، (د. ت.)، (د. ط.)، مؤسسة هنداوي للتعليم

والثقافة، القاهرة، مصر، ص 145 و 146

¹¹/ ينظر: الظاهر فواز، التجديد البلاغي في القرن العشرين، (2018)، مجلة جامعة البعث، جامعة

البعث، المجلد 40، العدد 2، 2018، ص 161

وإثراء البلاغة العربية وإعادة صياغة قواعدها لتلائم العصر الحديث ومستجداته، ويتم هذا عند بعض هؤلاء المجددين بإعادة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة جديدة تعتمد المناهج الغربية الحديثة، وخلاصة الأمر هنا هي أنه " من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب، وأن التعايش والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا"¹².

3- دعوات تجديد البلاغة:

لم يكن أمر التجديد في حقيقة الأمر حادثا أو جديدا، فلطالما رأينا على مر العصور من يحاول القيام بهذا الأمر بغض النظر عن الدوافع والأسباب، وبغض النظر أيضا عن الأساليب والمناهج، لذلك ليس غريبا أن نرى أمرا كهذا يحدث في العصر الحديث، ودعوات تجديد البلاغة قديمة في هذا العصر، فهي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر حينما قام الشيخ محمد عبده بتدريس كتابي ' دلائل الإعجاز ' و ' أسرار البلاغة ' لعبد القاهر الجرجاني، وهو بذلك يكون قد بدأ طريق التجديد؛ إذ فتح الأذهان إلى ضرورة إحياء البلاغة العربية وعدم الوقوف عند منهج شرح المتون الذي كان سائدا في المدارس والمعاهد العربية إبان هذه الفترة، كما أن ذلك قد قوى العزم عند طلبة الأزهر من أجل القيام ببحوث وأعمال تندرج في سياق التجديد وإحياء التراث وفق أسس جديدة مستوحاة من التواصل مع الغرب، وما استحدثه من علوم ومناهج، ثم قامت محاولات جادة في هذا العصر لإعادة الحياة للبلاغة وربطها بالأدب الحديث¹³.

1.3- دعوة جبر ضومط:

من الدعوات القديمة تلك التي أطلقها جبر ضومط (1858- 1930) في كتابه (الخواطر الحسان في المعاني والبيان)، وقد دعا في هذا الكتاب إلى دعوة تعدد - قياسا إلى ذلك العهد - متقدمة وجريئة؛ إذ إنه دعا إلى عدم الاقتصار على بلاغة الجملة وتجاوز ذلك إلى نظرة بلاغية شمولية تعالج النص الأدبي بشكل شامل، وهذه الفكرة ستكون فكرة أساسية في كل محاولات التجديد " ويكاد العلماء المحدثون والنقاد يجمعون على

¹² ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 63

¹³ المرجع نفسه، ص 169

ذلك، وهو أن البلاغة العربية يجب أن تخرج من نطاق الجملة والجملة إلى النص الكامل من شعرو قصة ومقال..¹⁴.

2.3- دعوة أحمد ضيف:

ومن ذلك أيضا دعوة أحمد ضيف (1880-1945) في كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) التي دعا فيه إلى تناول البلاغة بشكل مختلف تماما عما اعتاده البلاغيون العرب وقد قال ذلك تأثرا بما اطلع عليه عند الغرب، وفي ما قاله ما يوحي بأنه يدعو إلى التخلي عن بلاغة السكاكي أو علوم البلاغة كما استقرت عليه في آخر المطاف وإن لم يصرح بذلك، والحقيقة أن أحمد ضيف لم يتطرق إلى البلاغة بوصفها علما، بل بوصفها أدباً أو صورة من صور التعبير، يقول: " والبلاغة إما أن تكون عبارة عن إظهار ما يجول في نفس الإنسان من عواطف وإحساسات وخيالات وغيرها مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم، وإما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر، ... فالأولى هي البلاغة الوجدانية والثانية هي البلاغة الاجتماعية.... هذا هو التقسيم الفني للبلاغة "¹⁵، ويظهر أن هذه الدعوة أيضا لها امتداداتها القوية في المشاريع التجديدية التي ستظهر لاحقا والتي عزت جمود البلاغة العربية إلى تلك المنطقية الصارمة التي أورتها عمقا مزمنا كان لزاما تخليصها وتجريدها مما علق بها من هذه العقلية التي طغت لقرون على مباحث البلاغة وفنونها، والبحث عن بدائل أو مفاهيم أخرى للبلاغة ... وهذا كله تأثرا بالغرب وما وصلوا إليه في آدابهم وفنونهم وبلاغتهم.

3.3- دعوة أحمد أمين:

في عام 1927 كتب أحمد أمين مقالا في مجلة "مجمع اللغة العربية" بدمشق بعنوان (حاجة العلوم العربية إلى التجديد)، ومما جاء في هذا المقال متعلقا بالبلاغة دعوته إلى أن يكون الشاهد البلاغي مأخوذا من المحيط العصري المعيش، ولا شك أن هذه الدعوة جاءت نتيجة لما لاحظته أحمد أمين وغيره من هيمنة تلك الشواهد البلاغية القديمة التي كانت وليدة بيئة مختلفة تماما عن البيئة الحديثة ولا تندمج أبدا معها، وهذا بلا شك

¹⁴/ ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 158

¹⁵/ ضيف أحمد، مقدمة لدراسة بلاغة العرب، مطبعة السفور، (1921)، ط 1، القاهرة، مصر،

من الأشياء التي ساهمت في تعقيد البلاغة وتأخرها عن أداء ما يطلب منها في هذا العصر وفي أدبه، فتجد القاعدة البلاغية معقدة، ثم يعطى لها شاهد قديم ربما زاد في تعقيدها، وتظهر الغاية التعليمية من دعوات تجديد البلاغة؛ إذ إن رجال التعليم في المدارس والمعاهد العربية قد وجدوا صعوبة في تدريسها مما حدا بالعلماء والمفكرين في هذا الشأن إلى التفكير في تيسير البلاغة، واستحداث طرائق جديدة ملائمة لهذا العلم في هذا العصر.

4.3- دعوة علي الجارم ومصطفى أمين:

في عام 1939 ألف علي الجارم ومصطفى أمين كتابهما الشهير (البلاغة الواضحة) وهو كتاب تربوي تعليمي يبدو أن الهدف منه هو تقريب مباحث البلاغة وتيسير مطالعها؛ إذ نلاحظ فيه عرضا مبسطا للقواعد البلاغية مشفوعة بكثير من الأمثلة الشارحة والداعمة للذوق الفني والمربية له، كما ابتعد فيه صاحباها عن الأساليب المغلقة العقيمة والمسائل الجدلية على خلاف كل المؤلفات في هذا المضمار، وقد عبرا في مقدمة كتابهما هذا عن أن الغاية التي من أجلها قاما بتأليفه بشكل غير مباشر هي إحياء الأدب وتوجيه الطلاب إلى دراسة البلاغة بهذا المنهج الجديد، وهما يقصدان طريقتهما في تناول مسائل البلاغة¹⁶.

ويبدو جليا بأن منهجهما ينتهي إلى المدرسة الأدبية وليس إلى المدرسة الكلامية، وإن كان هذا الكتاب لم يأت بالجديد من ذلك أنه عرض فنون البلاغة موزعة على علومها الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع) بالمفاهيم والمصطلحات التي نعرفها في البلاغة وقواعدها، الجديد فيه هو طريقة العرض والروح الأدبية والجمالية التي طبعت مباحثه، وتقریب مسائل البلاغة وتبسيط مطالعها، ومن جديده أيضا - وقد نبه إلى ذلك كثير من الباحثين¹⁷ - تطرقه للأسلوب، ويؤكد هؤلاء الباحثون أن هذا الكتاب هو أول من بحث الأسلوب وعرفه وبين أنواعه مما لم يعتد في كتب البلاغة قبله، ونظرا لأهمية هذا الكتاب في مضمونه وأسلوبه وطريقته الجديدة وغايته، فقد لقي استحسانا من قبل كثير من البلاغيين والأدباء، وسار كثير من المؤلفين على نهجه وعلى منواله في التأليف؛ لذلك يمكن عدّه فاتحة عهد في التأليف البلاغي الذي يستهدف الغايات التربوية والتعليمية، وفي

¹⁶/ الجارم علي ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، (د.ت)، دارالمعارف، مصر، ص 8 و9 و10

¹⁷/ ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 75

الوقت نفسه يحافظ على أصالة البلاغة العربية، ويبرز جمالها وأسرار فنونها في غير تنطع أو فلسفة ومنطق عقيم.

5.3- دعوة عبد العزيز البشري:

في نهاية الثلاثينيات ألقى عبد العزيز البشري محاضرة في الجامعة الأمريكية، وكان عنوانها "ثورة على البلاغة"¹⁸، وقد تساءل في هذه المحاضرة عن سبب عجز علوم البلاغة العربية عن تخريج بلغاء أو أدباء ينشئون كلاما بليغا شعرا أو نثرا مادامت أدوات الإنشاء والإبداع متوفرة ممثلة في قواعد البلاغة في علم المعاني، وعلم البيان وكذلك علم البديع، ما علمهم - حسب رأيه- إلا السير على هداها وتطبيق نماذجها. واستخلص من ذلك أن هذه العلوم لا تصنع بليغا ولا أدبيا، وهو أمر - كما قال - قديم، والغريب في الأمر في هذا الطرح أنه رمى البلاغة بالقصور والعجز لهذا السبب الذي ذكره، ولم يقل أحد في القديم ولا في الحديث بأن قواعد البلاغة تنشئ بلغاء، فهو قد غفل عن أن هذا ليس من وظائفها. ثم يواصل هجومه على البلاغة بأن كتب البلاغة القديمة لا يمكن أن تلقن البلاغة الحققة وأنها قاصرة، وإذا بقيت على هذه الصورة فإن مكانها دار الآثار، ثم إن قدماءنا قد وجهوا اهتمامهم للنقد البلاغي الجزئي أي نقد الكلمة أو الجملة " أما نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعاني واتساق الأقطار وتلاحم الأجزاء فذلك ما لم يكن من نقده حظ جليل"¹⁹. ثم يضيف أن البلاغيين المتقدمين قد أهملوا بلاغة الصورة وكذلك بلاغة القصص.

وبالمحصلة فإن البلاغة العربية بصورتها الحالية قاصرة وفي حاجة إلى تجديد، وأن السبيل إلى ذلك هو تليينها وتطويرها لتشمل دراستها النص كله وليس أجزاء منه، النص بوصفه لحمة واحدة مترابطة، ثم لابد أن تقوم هذه الدراسة البلاغية على الفهم والذوق معا، وفي الأخير أوصى أن يكون تدريس البلاغة مرتبطا ومعتمدا على دراسة الأدب، ومما لا شك فيه أن هذه التوصية الأخيرة تكاد تكون من النقاط المشتركة بين دعاة تجديد البلاغة في هذا العصر.

6.3- دعوة أحمد الشايب:

¹⁸ ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 114

¹⁹ المرجع نفسه، ص 125

في عام 1939 صدر لأحمد الشايب كتاب (الأسلوب) وهو كتاب في غاية الأهمية فيما نحن فيه - أعني الدعوة إلى تجديد البلاغة - وقد استجاب فيه لدعوة من أمين الخولي الذي دعا قبل ذلك إلى ضرورة إنجاز أبحاث تفيد البلاغة وتساهم في تجديدها، ومن أهم هذه الأبحاث (بحث الأسلوب).

هذا الكتاب لأحمد الشايب قد حدد فيه بوضوح هدفه، وهو أنه يريد أن يضع منهجا جديدا للبلاغة العربية حتى تسير ما يحدث من تطور في عصرنا، يقول " يقوم هذا المنهج على ملاحظة أن الدراسة النظرية للبلاغة العربية انتهت عند المتقدمين إلى علوم المعاني، والبيان، والبدیع، يدرسون في الأول الجملة منفصلة أو متصلة، ويدرسون في الأخيرين الصورة بسيطة أو مركبة من تشبيه ومجاز وكناية وحسن تعليل، مع توابع أخرى في علم البديع، وهذه الدراسات على خطرهما لا تستوعب أصول البلاغة كما يجب أن تكون لتساير الأدب الإنشائي وفنونه"²⁰، فهو كما نرى ينطلق من قصور البلاغة العربية عن مواكبة الأدب وفنونه؛ لأن هذه فنون إبداعية ومتجددة وتتطلب مناهج وقواعد أخرى لا نجدها في البلاغة العربية كما هي مستقرة ومدونة منذ قرون، ولهذا فإنه من المنطقي بل من الضروري القيام بعملية تجديد تصب في هذا المجرى، يقول كذلك: "لذلك أشرنا في هذا الكتاب إلى أن علم البلاغة العربية يجب أن يوضع وضعا جديدا يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها: العلمية والأدبية"²¹.

ومن ثمَّ فإن الوضع الجديد للبلاغة العربية والصحيح هو أن يكون موضوع علم البلاغة مشتملا على شقين، الأول هو الأسلوب، والثاني هو الفنون الأدبية (وسماه أيضا الابتكار)، وهو بذلك يقوم بعرض البلاغة في صورة جديدة " وفي محاولة عرض البلاغة العربية القديمة في ثوب عصري يستفيد بالوافد من الفكر الغربي- ينطلق الشايب في بحث الأسلوب، فحصر علم البلاغة في باين هما: الأسلوب، والفنون الأدبية"²².

ففي الأسلوب تدرس القواعد التي تجعل الكلام بليغا، وهو عنده يعني الكلام الواضح المؤثر؛ فتدرس الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة، كما تدرس عناصر

²⁰ / الشايب، الأسلوب، 1991، ط 8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 03

²¹ / المرجع نفسه، الصفحة نفسها

²² / عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، ص 107

الأسلوب الأخرى وصفاته ومقوماته وموسيقاه. وهو يرى أن البلاغة العربية تندرج ضمن هذا القسم " فعلم البلاغة يدخل كله في بحث الجملة وعلم البيان وأغلب البديع في باب الصورة.."²³.

وفي باب الفنون الأدبية الذي سماه أيضا (الابتكار)، تحدث عن القواعد التي تنظم بعض الفنون الأدبية وتتحكم في محتواها وفي اختياره وتقسيمه وترتيبه، وفي رأيه أن هذا الأمر لوجود له في البلاغة العربية القديمة، لذلك لابد من استدراك هذا النقص إذا أردنا الارتقاء بها، يقول في هذا الباب: " وفيه تدرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية، وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ"²⁴، ويظهر أن الشايب في هذه الجزئية وهو يحاول بلورة وضع جديد للبلاغة العربية يستفيد من معطيات النقد الأدبي الحديث الذي تأثر عندنا بالفكر النقدي الغربي. وهو يرى بالتالي أن البلاغة العربية بمباحثها: المعاني والبيان والبديع قاصرة عن مواكبة تطور الفنون الإبداعية، أو بعبارة أخرى لا تغطي هذه الفنون بل "إنها قاصرة حتى في مجال الأساليب، رغم أنه يقرب تلك المباحث القيمة التي كانت للبلاغيين العرب من أمثال الجرجاني وأبي هلال العسكري، إلا أنها غير كافية في مجال الأساليب وغير منظمة كذلك.

وفي خضم دعوات التجديد التي كثرت وتعددت توجهاتها واختلفت دوافعها وأهدافها طلع علينا أحد أقطاب النهضة الفكرية والأدبية في العصر الحديث أحمد حسن الزيات بمحاضرة بعنوان 'دفاع عن البلاغة'، وقد يظن القارئ لأول وهلة أن البلاغة التي يدافع عنها هي بلاغة السكاكي أو تلك القواعد البلاغية التي استقرت وعرفت منذ قرون وهي التي كانت محل هجوم كبير من المحدثين ودعوا إلى تجديدها، لكن مقصود الزيات غير ذلك؛ إنه يدافع عن البلاغة العربية الأصيلة؛ البلاغة كَفَنٍ وليست قواعد صارمة، يقول: "تسألني بعد ذلك عن البلاغة التي أعنيها أو أدافع عنها ... والجواب أن البلاغة التي أعنيها وأدافع عنها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبارة العقل، هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ولا

²³/ الشايب أحمد، الأسلوب، ص 37

²⁴/ المرجع نفسه، ص 38

بين الفكرة والكلمة، ولا بين الموضوع والشكل؛ إذ الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل، والجسم جماداً لا يحس.²⁵ فهو بهذا التوضيح عن البلاغة التي يدافع عنها نفهم بأنه أدرك أن ما وقعت فيه من ضعف وانحدار هو سبب الهجوم عليها، وأنها إذا أعيد لها الاعتبار وفهمت الفهم الصحيح وطبقت أصولها أحسن تطبيق لم يعد هناك مجال لمتهم أو حتى لمن يريد تجديدها. كما أنه بذلك كأنه يريد أن يقول إن التجديد الذي يريدونه لا يقدم ولا يؤخر؛ لأنه يتعلق بالقواعد التي هي في الحقيقة نتائج، وليست هي البلاغة نفسها، وبالتالي هذه القواعد في حد ذاتها لا تسمى بلاغة أصلاً إلا من باب التجوز " وإذا كانت القواعد هي النتائج التي تستنبطها الأذهان القوية من وسائل الطبيعة وطرقها على طول القرون، فإن الشأن في البلاغة يجب أن يكون هو الشأن في سائر الفنون التي اخترعتها الغريزة وأصلحتها التجربة ورقاها المران؛ فعلم البيان إذن هو الجزء النظري من فن الإقناع، والبلاغة هي الجزء العملي منه، هو نهج الطرق وهي تسلكها، وهو يعين الوسائل وهي تملكها، هو يرشد إلى الينبوع وهي تغترف منه"²⁶.

ودفاع الزيات عن البلاغة مختلف عن دفاع بقية من دافع عنها، وذلك من زاويتين، أولاهما دفاع غير مباشر تمثل في تقديم تصور عن البلاغة يرى بأنه يعيد لها مكانتها بعد ما أصابها من انحطاط لأسباب ذكرها وهي (السرعة، والصحافة والتطفل)، وثانيتهما أنه يدافع عنها بوصفها فناً قولياً، أو لنقل البلاغة الفنية وليس عن الأصول والقواعد التي وضعها علماء البلاغة عبر العصور، وهي أي البلاغة مستغنية أصلاً عن هذه القواعد، فهي موجودة قبلها ومن دونها، بل كما أسلفنا هذه القواعد هي نتائج مستخلصة من نصوص رفيعة في بلاغتها الفنية.

ونحن إذا استعرضنا دفاع بعض الدارسين عن البلاغة العربية سنفهم هذا الموقف وهذا الرأي للزيات، فمثلاً أحمد بدوي يرد على من يعيب على البلاغة العربية وقوفها عند الجملة والجمليتين بقوله: إن البلاغة العربية قد أدت وظيفتها فيما مضى، والعقاد يرد بقوة عن دعوا إلى إلغاء التقسيم الثلاثي لعلم البلاغة العربية، وعباس حسن يدافع عن

²⁵ /الزيات أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، ص 17

²⁶ /المرجع نفسه، ص 15

السكاكي، ويقول إنه خدم البلاغة خدمة جلييلة بوضعه لتلك القواعد والأصول؛ لأنه بذلك جمع أشتاتها وجعلها علما قائما بذاته، ومثله في ذلك دفاع أحمد موسى الذي رأى أن ما قام به السكاكي هو عمل عظيم يحمده له التاريخ، والدكتورة سهير القلماوي التي عرّت جمود البلاغة في هذا العصر إلى سنة الحياة والتطور. وأعفت السكاكي من هذه المسؤولية²⁷.

ودفاع الزيات عن البلاغة يعد من زاوية أخرى دعوة إلى التجديد، ذلك أنه يقر ضمنا بالحالة المزرية التي آلت إليها البلاغة في هذا العصر، وفي الآن ذاته يقوم بتشخيص الداء وبيان الأسباب التي أدت إلى ذلك، فهو لا يلقي باللائمة على علوم البلاغة وقواعدها، ومن ثم فإن الطريق الصحيح لإنقاذ البلاغة وإحيائها ليس بالهجوم عليها، وإنما بإصلاح الوسائل المؤدية إلى ذلك، وأولها: الذوق ذلك أن البلاغة لم تُصَبَّ في مَقْتَل إلا من فساد الذوق على ما له من أهمية قصوى في البلاغة إنشاء وعلماء ذلك لأن حاسة الذوق هي أداة الفن، كما أن ملكة العقل هي أداة العلم. فمن لا يذوق لا يدرك الجمال، كذلك من لا يفقه لا يعرف الحق. ولم تُؤت البلاغة إلا من فساد الذوق فيمن يكتب أو فيمن يقرأ.²⁸ ويرى أن لا سبيل لإصلاح أمر البلاغة إلا بإصلاح الذوق وتنشئته تنشئة صحيحة لأنه أساسها وقوامها " وأقرب الوسائل إلى ذلك التعليم الصحيح والمثل الأعلى. فإذا عُني القائمون على الثقافة بتعليم اللغة على النحو الذي تعلم به اللغات الأوروبية في الغرب، وعرضوا على النشء المثل العليا من الأدب، قديمه وحديثه، ورغبوه في قراءتها بالعرض المشوق والطبع الأنيق والمكافأة الحسنة، رجونا أن تنشأ الأذواق على الصحة وتجري على الطبع.²⁹ فمستقبل البلاغة في رأيه منوط بالذوق الطبيعي الذي ينبغي أن يكون بديلا عن المزيف الذي نشأ بفعل التنشئة السقيمة والذي أوصل البلاغة إلى ما وصلت إليه، والبلاغة التي يريدونها هي التي لا ينفصل فيها شقاها الفني والعلمي عن بعضهما، البلاغة القائمة على الذوق والعقل، ولا ينفصل فيه الشكل عن المضمون ولا اللفظ عن المعنى.

7.3- دعوة أمين الخولي:

²⁷/ ينظر: ندا منير محمد خليل ، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 543

²⁸/ الزيات أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، ص 41

²⁹/ المرجع نفسه، ص 52

يعد أمين الخولي أشهر وأهم من دعا إلى تجديد البلاغة العربية، ذلك أن غيره - وهم كثر - قد دعوا إلى ما دعا إليه، ولكنه قد تفوق عليهم في أن دعوته لم تقتصر على مجرد طرح الفكرة بل تتجاوزها إلى تقديم رؤية متكاملة ومنهج واضح وضع فيه الإجراءات التي من شأنها أن تهض بالبلاغة، وكان له في ذلك كتابان في هذه المجال هما: (كتاب مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب وكتاب فن القول).

كان أمين الخولي مؤمنا بالتجديد، ويرى أنه ناموس كوني لا يتخلف، مع أنه يرى أن في القديم ما هو صالح وينبغي أن يظل باقيا، ثم إنه اقتنع بأن البقاء في الجانب النظري في أي علم لا ينتج عنه شيء، بل إن صاحبه يظل مراوحا مكانه لا يفيد منه إلا قليلا. كذلك يرى أن للتجديد بصورة عامة غرضين: قريب وبعيد، فالقريب هو "تسهيل دراسة المواد الأدبية واقتصاد ما يبذل فيها من جهد ووقت ... بحيث يمكن كل دارس لها أن يظفر في وقت مناسب وبجهد محتمل بما يستطيع معه استعمال اللغة في حياته، ذلك الاستعمال الذي تطلب من أجله اللغات"³⁰. فهذا الهدف يستهدف الفرد أي يجعله قادرا على استعمال اللغة بطريقة سهلة، وهذا يؤكد وعي الكاتب بالصعوبة التي آلت إليها علوم اللغة والبلاغة بوجه خاص حتى غدت ميدانا صعبا مستغلقا لا يقدر عليه إلا المختصون. أما الهدف الثاني فهو بعيد وهو "أن تكون هذه الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعي تتصل بمشاعر الأمة وتسائر حاجاتها الفنية المتجددة، فتكون اللغة لغة الحياة في ألوانها المختلفة، وأداة التفاهم المرضية في البيت والمعمل، والجامعة، والمسرح، والسوق، والنادي... فلا يعيش الناس بلغة ويتعلمون لغة أخرى، ولا يفكر الناس بلغة، ويدونون أفكارهم بغيرها..."³¹.

وقد انطلق الخولي في دعوته للتجديد أو بالأحرى في منهجه من المقارنة بين البلاغة القديمة والبلاغة الحديثة (يقصد بها الغربية)، فيلغي أو يزيل ما هو غير صالح ويبقي ما هو صالح، ذلك أنه لاحظ أن البلاغة العربية القديمة قد شابتها مجموعة من الخصائص السلبية؛ التي يجب التخلص منها كخطوة هامة لتحقيق التجديد الناجع، لذلك لا بد من

³⁰/ الخولي أمين، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، 1961، ط1، دار المعرفة، ص 264،

وفن القول، (1996)، (د. ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ص18

³¹/ الخولي أمين، مناهج تجديد، ص 264

مقارنة بين القديم والجديد والخروج بنتيجة " دراسة مقارنة يقابل فيها القديم بالجديد، وتنتهي تلك المقارنة إلى نتائج نفكر في تحقيقها، فندل على تخلية ترك من القديم ما لا خير فيه، تم تحلية تضم إليه خير ما في الجديد .."³²، وبذلك فإن أمين الخولي لم يكن متعصبا للتراث إلى الحد الذي لا يرى فيه غيره، ولم يكن متحمسا إلى الحديث إلى درجة إلغاء كل حسنات للقديم؛ فالتجديد عنده لم يكن أبدا مطلقا لا ضابط له، أو دعوة بلا غاية نبيلة، ف" لم يكن التجديد عند الخولي اعتاقا لا ضابط له من أسر القديم"³³. وقد كانت له مقولة مشهورة وهي أن أول التجديد هو قتل القديم فهما³⁴، تعضد هذه المقولة مقولة قديمة ولكنها في الاتجاه المقابل أي أنها تحث على التجديد البلاغي وهي أن البلاغة علم لم ينضج ولم يحترق، كذلك فإن التجديد عنده لم يكن ليقف عند حدود الأهداف العلمية والتربوية، بل يتجاوز ذلك إلى الأهداف القومية والحضارية، وهذا ما أشار إليه حينما تحدث عن الهدف البعيد من التجديد بعامته وتجديد البلاغة بخاصة.

وقد كان للتجديد مجموعة من الأسباب والأهداف يمكن شرحها وفهمها من خلال تلك الأفكار التي طرحها طوال مساره البحثي، وأظهر ذلك في مؤلفاته وبخاصة في كتابيه: ' مناهج التجديد ' و ' فن القول '، وهذا التجديد ينبغي أن يمس .. الأصول فيغيرها وينفي فيها ويثبت، ويخالف مقررات كبرى- وبخاصة في البلاغة المتفلسفة- ونضيف إضافات جديدة، حتى نصل البلاغة بالحياة، وتمكنها من التأثير الصالح فهما"³⁵.

وأبرز ما لاحظته الخولي على البلاغة العربية وكان ذلك من دوافع التجديد عنده قصور البلاغة العربية عن مواكبة تطور الآداب والفنون، ذلك أنها تقف في معالجتها عند حدود الكلمة والجملة وعدم قدرتها - حسب رأيه - عن دراسة أعمال فنية كاملة لذلك من المفيد الاستفادة من تجربة البلاغة الغربية الحديثة وتطوير بلاغتنا بربطها بالإبداع الأدبي وبالحياة بصورة عامة، وهذا يظهر التأثير الغربي في تفكير الخولي، وإن كان فيه من أثر تراثنا البلاغي؛ إذ كان دائما من أهداف البلاغة تقويم الإبداع وتوجيهه، وقد استشهد

³²/ الخولي أمين، فن القول، ص 25

³³/ مصلوح سعد عبد العزيز، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، (2003)، ط1، مجلس النشر

العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ص 32

³⁴/ الخولي أمين، فن القول، ص 128

³⁵/ الخولي أمين، مناهج تجديد، ص 265

الخولي برأي لأبي هلال العسكري في وظيفة البلاغة " ...إن صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وكلام رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينثي رسالة وبهذا تحكم حاجة الحياة الأدبية. وينتفع بكل ما يجد في تلك الحياة من نافع ونخدم الفنون القولية الرائجة"³⁶، إلا أن هذا غير كاف خاصة أن البلاغة العربية قد استقرت على نمط من الدراسة جعلها محدودة ومقتصرة - كما أشرنا سابقا - على الكلمة والجملة وهذا من أسباب انتقادها.

ومن هنا فإن التجديد البلاغي ينبغي أن يخرج من هذه الدائرة " وعلى هذا نبدأ البحث البلاغي المستوفي، ولا نَحُدُّه بالجملة، بل نَمُدُّه إلى الفقرة، والعمل الفني الكامل، فنبحث في الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته، ومزايا أنواعه المختلفة، وننظر النظرة الجامعة في الأثر الأدبي كله"³⁷، وهذا يكشف أمرا آخر في رؤية الخولي للبلاغة الجديدة وهي ضرورة إدخال مبحث الأسلوب إلى مباحث البلاغة كما فعل أحمد الشايب في كتابه ' الأسلوب '، ولا شك أن هذا كان بفعل التأثير الغربي في المجددين العرب؛ فتأثير الدراسات الأسلوبية الغربية واضح، وإن كان واضحا أيضا لدى الباحثين العرب أن الدراسات الأسلوبية لا يمكن أن تكون بديلا عن الدراسات البلاغية"³⁸، فضلا على أن مثل هذه الأبحاث لا تنعدم منها الدراسات البلاغية القديمة، لكنها غير كافية، بل لا بد من جهد معرفي إضافي وهذا ما قصد إليه الخولي خاصة في الخطة التي وضعها في كتابه ' فن القول ' " ولعل ما تتميز به خطة البحث في فن القول هو امتداد مجالها إلى خارج حدود الجملة الواحدة، واتصالها بالعمل الفني الأدبي كله، ومحاولة تقريب الدرس البلاغي من الدرس الأسلوبي ... والنظر في الفنون الأدبية نظرة تُعنى بالمعاني حين تنظر إلى الألفاظ"³⁹.

كما دعا الخولي إلى إحياء المدرسة الأدبية تلك التي كانت قبل طغيان النزعة الفلسفية والكلامية، تلك المدرسة التي كانت بحق ممثلةً للدرس البلاغي في روحه وجوهره

³⁶/ الخولي أمين، مناهج تجديد، ص 266

³⁷/ المرجع نفسه، ص 266

³⁸/ أبو العدوس يوسف، البلاغة والأسلوبية، (1999)، (د. ط) الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،

ص 183

³⁹/ عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، ص 119 و 120

كما نجده بصورة خاصة عند عبد القاهر الجرجاني في كتابيه ' دلائل الإعجاز ' و ' أسرار البلاغة '، وهذه الدعوة تقودنا بشكل مباشر إلى دعوة أخرى، وهي تخليص البلاغة العربية من النزعة الفلسفية الكلامية ومن تلك المباحث الفلسفية والاستطرادات المنطقية غير المفيدة، والإسراف في التععيد وإخضاع الفن والأدب لقواعد صارمة لا تمت إليها بصلة، مما أدى إلى قتل روح الإبداع وتحويله إلى عملية ذهنية مجردة، وهذا الاتجاه هو الذي عرفت به البلاغة العربية وأدى إلى جمودها، ومن ثم الثورة عليها ورميها بكل نقيصة.

ثم أضاف أمرا عدّه نتيجة لتوسيع الدرس البلاغي ليشمل فضلا عن المفردة والجملّة الفقرّة والقطعة والأساليب، هذا الأمر هو إلغاء التقسيم الثلاثي للبلاغة (المعاني، والبيان، والبديع): لأن ذلك لم يعد ذا معنى أو أهمية في التوجه الجديد للبحث البلاغي، فالتقسيم القديم كان يلي البحث القديم الذي يتركز في المفردة والجملّة، أما البحث الجديد فهو يتجاوز ذلك إلى الفقرات والقطع والنصوص وإلى المعاني الكلية⁴⁰.

وأضفا أيضا أمرا آخر عدّه نتيجة لاستبعاد الرؤية الفلسفية والكلامية والمقدمات المنطقية التي تحكمت في البلاغة العربية وكانت سببا - حسب رأيه - في جمود البلاغة، هذا الأمر هو وجوب استبدال الطرائق القديمة المنطقية بمقدمات جديدة يراها ضرورية، وهما في الحقيقة مقدمتان:

- مقدمة فنية يكون فيها التعريف بالفن وطبيعته وغايته وأقسامه، على أن يتم التركيز على الفن القولي.

- مقدمة نفسية وهذه أيضا ضرورية؛ لأن أساس أو منبع الفن عامة والفن القولي خاصة هو الوجدان، لذلك من المفيد التعريف بالقوى الإنسانية ذات الأثر في الحياة الأدبية، ثم أيضا لا بد من الاهتمام " بدراسة أمهات العواطف الإنسانية التي هي مادة المعاني الأدبية، ومثار الفنون القولية نثرا وشعرا، وهي في الجملّة دنيا الأدب والفنون كلها"⁴¹.

ومن المسائل التي حرص عليها الخولي فنية البلاغة إلى درجة أنه سعى هذا العلم أو اقترح له تسمية أخرى رآها ملائمة لطبيعتها، هذا التسمية هي (فن القول). وقد دعا في

⁴⁰/ ينظر: الخولي أمين، مناهج تجديد، ص 276

⁴¹/ الخولي أمين، المرجع نفسه، ص 268

هذا الشأن إلى إلغاء التقسيم الثلاثي لعلم البلاغة، ونفى عنها صفة العلم واقترح عليها صفة الفن بدلا عن ذلك؛ لأنه الأنسب لطبيعتها، سواء تعلق الأمر بانتماء البلاغة إلى الفنون الجميلة أو على الأقل اقترابها من دائرتها، أو تعلق الأمر بمنهج البلاغة الذي هو عمل تطبيق حرفي إن صح التعبير، ولذلك ناسبها هذا الوصف، وقد لاحظ أن القدماء لم يكونوا يميزون بين العلم والفن، فأراد هو أن يضع حدا لهذا الخلط، فرأى " أن ما يخص الفن هو تطبيق لحقائق نظرية وقضايا علمية... فإذا ما وصف الفن الجميل فقد أريد به ذلك النشاط الوجداني في دنيا الدرس الأدبي، وما إليه من الدراسات التي يريد وصله بها"⁴².

كانت هذه أهم المبادئ التي ميزت رؤية أمين الخولي في تجديد البلاغة العربية، وقد نادى بها في مساره العلمي وظهرت في مؤلفاته، وتجدر الإشارة إلى أن مؤلفه الأخير ' فن القول ' شرح فيه منهجه التجديدي وأعاد التأكيد على رؤيته ومبادئه، كما وضع الخطة التي يرى أنها تعمل على تنفيذ مبادئ التجديد وهي إجمالا:

أ/ المادة: منهجها، ومباحثها - ب/ المعلم: تفقهه فيها وزيادة علمه بها- ج/ العرض: عرضا للناشئين يكسبهم القدرة الكاملة فيها - الكتاب: الذي يحقق به هذا العرض المكسب لهذه المقدرة⁴³.

وقد فصل الخطة تفصيلا استوفى فيه موضوع التجديد من كل جوانبه، وشرح فيه الخطوات خطوة خطوة بما من شأنه أن يحقق غرضه في مجال تجديد البلاغة العربية.

4- دعوات أخرى:

كانت هذه أهم الآراء التي دعت إلى تجديد البلاغة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك آراء ودعوات أخرى لا تقل عنها أهمية، وأعقبها محاولات أخرى لباحثين وأساتذة كلُّ قد أدلى بدلوه حسب ما يمليه عليه فكره ومرجعياته المعرفية، وهي معظمها ليس فيها من الجديد إلا النزر اليسير⁴⁴، ومن هؤلاء:

⁴²/ عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، ص 123

⁴³/ الخولي أمين، فن القول، ص 21

⁴⁴/ ينظر: ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، ص 78 وما بعدها وكذلك: الظاهر فوارة، التجديد البلاغي في القرن العشرين ص162 وما بعده. وغيرهما من المؤلفات في هذا الموضوع.

- أحمد مطلوب، له مجموعة من المؤلفات في مجال البلاغة منها: مناهج بلاغية، والبلاغة والتطبيق، واتجاهات البلاغية العربية، وقد كشف فيه عن رأيه في التجديد البلاغي في هذا الكتاب ووضع ما يشبه الخطة لتلقي البلاغة وتدرسيها أيضا.
- فتحي فريد في كتابه ' المدخل إلى دراسة البلاغة ' وقد بين فيه أن التجديد في مجال البلاغة له اتجاهات (نفسية، وبيانية، وتربوية) ودعا فيه البحث البلاغي وفق هذه الاتجاهات.
- بكرى شيخ أمين في كتابه ' البلاغة العربية في ثوبها الجديد' وقد أعاد فيه صياغة المباحث البلاغية في أسلوب جديد، ولم يضيف شيئا ذا بال إلى المحتوى البلاغي.
- محمد بركات حمدي أبو علي في كتابه ' دراسات في البلاغة ' وقد دعا إلى دراسة البلاغة دراسة شمولية وفق منهج فني، كما دعا إلى استفادة البلاغة من العلوم الأخرى.
- مصطفى الصاوي الجويني في كتابه ' البلاغة العربية تأصيل وتجديد ' و ' مدارس البلاغة المعاصرة ' وقد أصل في الأول للبلاغة العربية تأصيلا جيدا، إلا أن حظ التجديد فيه قليل، وفي الثاني عدد المدارس البلاغية الموجودة في الساحة العربية.
- محمد عبد المطلب في كتابه ' البلاغة العربية قراءة جديدة " حاول فيه تقديم قراءة جديدة للبلاغة العربية مطبقا النظرية اللسانية التحويلية، إيماننا منه أن القراءة التقليدية لم تعد كافية، ولا بد من الانفتاح على النظريات الجديدة والاستفادة من أدواتها وإجراءاتها التي من شأنها أن تزيد في بلاغتنا ولا تنقص منها، لكن ذلك لا يعني التنكر للبلاغة العربية القديمة.
- جميل عبد المجيد ' البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ' طبق فيه المقاربة النصية في معالجة البديع في النص الأدبي، وحاول إثبات تماسك النص وانسجامه.
- حمادي صمود في كتابه ' التفكير البلاغي عن العرب ' وكتب أخرى.
- و تتمثل محاولة حمادي صمودي في تجديد البلاغة العربية في إدخال تصور آخر في فهم البلاغة العربية القديمة قائم على أسس البلاغة الجديدة التي تسمى أيضا بالحجاج، وهي ذات أهمية كبيرة في عصرنا، وهو يرى أن البلاغة العربية قائمة على الإمتاع وليس الإقناع، والسبب في ذلك أنها نشأت في أحضان الشعر، لذلك علينا أن نستعين ببلاغة الحجاج ومضامينها من أجل قراءة تراثنا البلاغي ونكتشف ما فيه قيم وإمكانات من أجل إثراء النقد الأدبي والحياة الثقافية بصورة عامة.

- محمد العمري في كتابيه: في ' بلاغة الخطاب الإقناعي '، ' البلاغة والحجاج'.
حاول محمد العمري إقامة مشروع جديد للبلاغة العربية قائم على معطيات الدراسات الغربية الحديثة، وهو أيضا اعتمد مضامين البلاغة الجديدة (الحجاج) وهو أيضا يؤكد أن هذه المضامين موجودة في البلاغة العربية، ويمكن البناء على ذلك لتأسيس بلاغة عربية جديدة تستند إلى التراث البلاغي القديم، وفي الوقت نفسه تأخذ من الجديد لتتحقق لها المعاصرة.

هذا غيض من فيض، قليل من كثير، إذ دعوات التجديد ومشاريع التحديث كثيرة أكثر من أن يحومها عمل مثل هذا، ذكرنا أبرزها، وركزنا على تلك التي كانت في النصف الأول من القرن العشرين؛ لأن الأسبقية كانت لها وكانت الأهم في نظري.

خاتمة:

كان هذه البحث استعراضيا مختصرا لتلك الدعوات التي استهدفت تجديد البلاغة العربية القديمة، بعد ما أصابها من جمود وتراجع عن مواكبة مستجدات هذا العصر من الناحية العلمية ومن الناحية الإبداعية أيضا، وقد ركز البحث على تلك الدعوات التي لها الريادة، وأيضا على تلك التي اتسمت بالنضج والشمول، وقد لاحظت أن هذه المحاولات كانت في معظمها في النصف الأول من القرن العشرين. وخلص البحث إلى جملة من النتائج من أهمها:

- إن الأسباب التي دعت إلى تجديد البلاغة كانت في أغلبها موضوعية ترجع بالأساس إلى عجز البلاغة العربية عن مواكبة مستجدات العصر علميا وإبداعيا، وذلك بسبب القيود التي كانت تكبلها نتيجة خضوعها للنزعة الفلسفية والكلامية، مما جعلها تستحيل قواعد منطقية صارمة مبتعدة عن روح البلاغة وجوهرها، وأيضا ضيق مجالها بحيث إنها لا تخرج عن دراسة الجملة أو الجملتين دون أن تتجاوز إلى النص أو العمل الأدبي الكامل، وما إلى ذلك من النقائص التي طرأت عليها.

- بعض دعوات التجديد لم تكن منطلقة من أسباب أو دواع موضوعية، بل كان الغرض منها إقصاء البلاغة العربية والبحث عن بدائل أخرى، وذلك قد يكون لأغراض غير علمية وغير موضوعية، إلا أن هذه الدعوات كانت قليلة ولم يكن لها أي صدى في الأوساط الأدبية والعلمية.

- من النتائج الهامة كذلك أنه من الضروري تخليص البلاغة العربية من كثير مما لصق بها من تلك الأبحاث الغريبة عن روحها وجوهرها والتي جاءت من الفلسفة وعلم الكلام والمنطق، واستبدالها بمقدمات فنية وجمالية ونفسية تنسجم مع طبيعة البلاغة والمتفكة مع روحها ووظيفتها.

- ويدخل في النتيجة السابقة أمران: الأول تيسير مباحث البلاغة ومطالبتها وإدخالها ضمن المنظومات التربوية والمناهج التعليمية بشكل ميسر وقابل للتدريس، والثاني إحياء المدرسة الأدبية التي تهتم بالجانب الإبداعي وتعتمد الذوق والحس الفني بحيث تصبح البلاغة أداة في تقوية الشعور بالجمال، والتمكن من التمييز بين الجيد والرديء من الكلام، وكذلك إكساب القدرة على التعبير الفني الجميل.

- أصبح من الضروري إدراج دراسة الأساليب ضمن مباحث البلاغة، لكن دون أن تكون هذه الدراسات أو غيرها بديلا عنها؛ فالبلاغة العربية رغم ما أصابها مازالت علما وفنا له مجاله وله أهميته، ولا يمكن الاستغناء عنها.

- جاء في بعض دعوات تجديد البلاغة بعض المطالب التي لا يمكن قبولها؛ لأنها تنسف هذا الفن من الأساس مثل: إلغاء علم البلاغة بالكلية؛ بدعوى أنه علم قديم وجامد ولم تعد له أي قيمة والبحث عن بلاغة أخرى، ومثل استبعاد بعض مباحثها نهائيا، أو إلغاء التقسيم الثلاثي المعروف للبلاغة (علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع)...

- مما تم استنتاجه أيضا من هذا البحث أن دعوات التجديد البلاغي رغم كثرتها وتنوعها واختلاف مشاربها، إلا أنها ظلت محدودة التأثير؛ لأنها كانت نظرية في مجملها، ولأنها أيضا لم تجد طريقها للتطبيق، إذ مازلنا نتلقى البلاغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا وهي في ثوبها القديم إلا في ما ندر. وهذا له معنى واحد ينبغي أن ننتبه إليه وهو أن طريق التجديد والتحديث ما زال مفتوحا وينبغي بذل مجهود أكبر لتحقيق هذا الهدف النبيل.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الجارم علي ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، (د. ت)، (د. ط)، دار المعارف، مصر.
- 2- الخولي أمين، فن القول، (1996)، (د. ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
- 3- الخولي أمين، مناهج تجديد النحو والبلاغة والتفسير، 1961، ط1، دار المعرفة، مصر.
- 4- الزيات أحمد حسن ، دفاع عن البلاغة، (1945)، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر.
- 5- الشايب أحمد، الأسلوب، (1991)، مكتبة النهضة المصرية،، ط8، القاهرة، مصر.
- 6- ضيف أحمد، مقدمة لدراسة بلاغة العرب،(1921)، ط1 مطبعة السفور، القاهرة، مصر.
- 7- ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، (د. ت)، ط9، دار المعارف، مصر.
- 8- الظاهر فائزة، التجديد البلاغي في القرن العشرين،(2018)، مجلة جامعة البعث، جامعة البعث، المجلد 40، العدد 2، 2018، العراق.
- 9- عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، (1994)، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر.

- 10- عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب،(1972)، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- 11- أبو العدوس يوسف، البلاغة والأسلوبية،1999،(د. ط) الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- 12- فضل صالح، علم الأسلوب- مبادئه وإجراءاته،1998، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- 13- الكواز محمد كريم، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، (2006)، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان.
- 14- مصلوح سعد عبد العزيز، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية،(2003)، ط1، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت.
- 15- مطلوب أحمد، حسن البصير، البلاغة والتطبيق (1999)، ط2، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق.
- 16- موسى سلامة، البلاغة العصرية واللغة العربية،(د. ت)، (د. ط) مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
- 17- ندا منير محمد خليل، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث (رسالة دكتوراه) (د.ت) جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة.

